ISSN 2170-0796

قراءة في كتاب ' القرآن الكريم و الدراسات الأدبية ' عند' نور الدين عتر'

حورية قادري - جامعة بشار

إن المطلع على كتاب ' القرآن الكريم و الدراسات الأدبية ' لصاحبه نور الدين عتر (1) ، يلحظ أن هذا الكتاب ينقسم إلى قسمين : قسم منه احتوى دراسة نظرية خاصة بعلوم القرآن : كأسباب النزول ، المكي و المدني ، القراءات ...الخ ، أما القسم الثاني : فتضمن الجانب التطبيقي لهذه الدراسة الأدبية ، حيث خص الفصل الثالث من الكتاب بدراسة قضية الإعجاز القرآني ،فعرض للنظريات العامة في بيان إعجاز القرآن و سيُدرج ذلك فيما يأتي ، تجلت لدينا جملة من التساؤلات حول هذه الدراسة الأدبية للنص القرآني ، فهل كان نور الدين عتر تراثيا أم حداثيا في منهج تحليله لسور و آي الذكر الحكيم ؟ و هل أفاد إفادة كبيرة من الدراسات الإعجازية القديمة ؟ و أين تجلى ذلك التأثر ؟ و ما وجه إعجاز القرآن في نظره ، و من ثم كيف تعامل مع هذا النص المعجز؟ و هل أولى هذا الناقد اهتماما بمتلقي النص الأدبي عموماً ، و متلقي النص القرآني على الخصوص ؟

لقدتطرق الدكتور عتر في مؤلفه هذا ، إلى مجموعة من النظريات وصفها بالنظريات العامة في بيان إعجازالقرآن ، و سردها حسب ترتيبها الزمني على النحو التالي :

أ - نظرية تفسير الإعجاز بالصّرفة :

و بعد أن أشار ' نور الدين عتر' إلى معنى الصرفة لغة و اصطلاحاً ، راح يدلي برأي إبراهيم النظام ، و الذي قال عنه الرافعي شيطان المتكلمين الذي يقر فيه « بأن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال و الحرام ، و العرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك و سلب علومهم به » (2) .

فأن هذا الرأي لقي الردّ الشديد، من أئمة البلاغة و البيان لأن الرجل فكر بطريقته الفلسفية و أصدر حكمه هذا الذي أوقعه فيما لم يكن يقصد إليه ، لأن الفلسفة معرفة عقلية لا تفرق بين الأمور المتصلة بالإيمان و الأمور التي لا علاقة لها بالإيمان ، و على هذا الأساس يرفض نور الدين عتر هذه الفكرة ، و لم يذكرها إلا لأنها أول نظرية في إعجاز القرآن كان من الضروري التطرق إليها كيما يكون هناك تسلسل تاريخي للدراسات الإعجازية ، و بعد ذلك ينتقل نور الدين عتر إلى نظرية أخرى كان لها صداها عبر العصور الماضية ، و وصلت ذروتها في القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا ما زالت تحافظ على مصداقيتها ، بل ازداد الحداثيون بها إعجاباً أكثر من السابقين ، إنها ' نظرية النظم' التي ظهرت على يد الجاحظ و بعده آخرون أمثال الباقلاني و غيره ، إلى أن جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني(471هـ) ، و أسس قوانينها و أرسى قواعدها العامة .

ب- نظرية إعجاز نظم القرآن:

جاءت هذه النظرية بعد جهود متتابعة للدراسات الإعجازية ، فكان أول من فكر في قضية 'النظم' هو الجاحظ في كتابه ' نظم القرآن ' و جاءت دراسة الرماني الذي عني بالإعجاز البلاغي في القرآن ، ثم أتى الخطابي ، و بعده الباقلاني في القرن الرابع الهجري ، حيث بدأت العقلية العربية تنضج شيئا فشيئا عما كانت عليه في السابق ، وراح الدارسون يمحصون و يدققون في نظرياتهم و قال معظمهم بفكرة التفاوت بين كلام الله عز وجل ، و كلام البشر ، و لا ننسى ذلك الصراع الذي كان قائما بين النقاد حول ثنائية اللفظ و المعنى . حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري لينهي هذا الخلاف و يحسم الأمر في هذه الثنائية بأن اللفضة لا تستحق المزية بانفرادها ، لأن النظم عند الجرجاني الوسيلة الوحيدة لتقييم العبارة و الكلام عامة فليس للفظة مزية من

ISSN 2170-0796

حيث هي لفظة ولا للمعنى من حيث هو معنى ، و إنّما العبارة التي تضم اللفظ و المعنى و يحكمها و ينسقها النظم بمفهومه الفني و النفسي

فأثار عبد القاهر احتمالاً أن تكون الكلمة سر البلاغة و الإعجاز ، و نفي ذلك بأدلة خاض فيها حتى خلص إلى القول بأن الألفاظ تتفاضل من حيث أنها ألفاظ مجردة ، و لا من حيث هي كلم مفردة ، و أن : « الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ و مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك و تؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك و توحشك في موضع آخر ...» (3) .

و من هاهنا ، نستشف أن لا مزية للفظة دون أخرى ، إلا من خلال هذا النظم أي أن التفاضل يكمن في حسن تأليف الكلم ، و في تناسق الألفاظ و انسجامها في النظم و الرصف ، فالكلمة المفردة خارج السياق لا تؤدي معناها ، و لا نستطيع تحديد دلالتها إلا إذا وجدت داخل سياق الكلام . ثم يورد نور الدين عتر قولاً آخر لعبد القاهر الجرجاني يقول فيه : « و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو.... »(4).

و جاء في تعليق لـ ' نور الدين عتر' يقول فيه « لكن الجرجاني لا يقصد بهذا مجرد وقوع الكلام مؤلفا وفق قواعد النحو كيف كان الأمر ، بل يقصد بذلك ما يشمل كيفية الترتيب أو أسلوب الكلام »(5). و من هذا القول يتضح بأن نور الدين عتر قد فهم قصد الجرجاني من وراء نظرية النظم التي تحث على تناسق الترتيب ، و حسن التأليف ، و روعة الأسلوب ، و هذا لا يتحقق بمجرد تطبيق لقواعد نحوية جافة .

بعد ذلك ينتقل إلى حديث الجرجاني عن الاستعارة ، بمعنى أن هذا الأخير خاض في باب المجاز و الحقيقة في الكلام وبين ذلك بالأمثلة في الشعر ، و في القرآن الكريم أيضاً.

ثم ينتقل بنا صاحب الكتاب إلى نظرية حديثة تخدم قضية الإعجاز القرآني ألا و هي نظرية ' إعجاز النظم الموسيقى في القرآن ' التي عرفناها سالفاً مع ' مصطفى صادق الرافعي' .

ج- **نظرية إعجاز النظم الموسيقى في القرآن:** و حول تعليقه على هذه النظرية يرى نور الدين عتر بأن الرافعي بدأ نظريته بداية معاكسة لنظرية النظم عند الجرجاني لأنه اهتم بالحرف ثم الكلمة و ليس كما فعل الجرجاني الذي ركز عمله على الترتيب ثم أورد نور الدين عتر رأيا للرافعي في كتابه ' إعجاز القرآن ' يقول فيه : « فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه ... » (6) . و منه يتبين أن الرافعي انطلق من الجزء إلى الكل عند مفهومه للنص ، أما الجرجاني فقد انطلق من كلية النص ليبحث بعدها في جزئياته . ثم أورد عتر قول الرافعي في نظم الحروف و أصواتها و الكلمات و حروفها ، و مع ذكر الأمثلة التي أدلى بها الرافعي في مؤلفه ' إعجاز القرآن '.

كما يقر بأن الرافعي « بدأ بداية منطقية بالنسبة لنظريته التي تعتمد على إبراز عنصر الصوت مصدراً للإعجاز ، و الحرف هو الموجة الأولية و النغمة الأساسية في تكوين النغم القرآني العجيب المعجز » (7) . و هذا بطبيعة الحال ناتج عن ترتيب الحروف بوصف أصواتها و مخارجها و مناسبة بعض ذلك لبعضه في المميزات و الصفات .

و بعد ذلك يُعَرِضُ لنظرية إعجازية أخرى تألقت في سماء القرن العشرين أثارها الناقد ' سيد قطب ' و أطلق عليها اسم : ' نظرية الإعجاز بالتصوير الفني' لقد لهذه النظرية دوافعها الخاصة التي ساعدتها على الظهور في وقت ارتقى فيه فن التصوير و ظهرت أدوات العرض البصرية ، فاحتلت الصورة مكان الكلمة ، و الألوان مكان المجازات في الأقوال .

د - **نظرية الإعجاز بالتصوير الفني:** و بعد أن مهد لظروف نشأتها ، ذهب نور الدين عتر يبين لنا فحوى هذه النظرية و رآها بعين صحي الصالح بأنها - أي نظرية التصوير الفني- تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن ، لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله ، و تُمَكِنُ الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم ، و الاستمتاع به بوجدانهم و شعورهم ، و لاريب أن العرب المعاصرين للقرآن دهشوا قبل كل شيء بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا حتى إذا فهموه أدركوا جماله و مسّ قلوبهم بتأثيره » (8) . و قد خص المبحث الثاني من الفصل الثالث لهذا الكتاب بعنوان ' التصوير في القرآن ' .

ISSN 2170-0796

ثم قام بتقسيم أوجه الإعجاز إلى قسمين : (من حيث البيان ، و من حيث المضمون) :

_أولاً : أوجه الإعجاز من حيث البيان : حيث يقول « أن المنهج البياني المعجز للقرآن هو سمة عامة لجميع القرآن الكريم أما الأوجه الأخرى ، يوجد الوجه منها في بعض الآيات دون غيرها ، كأخبار الغيب و الإعجاز العلمي ، و الإعجاز التشريعي و هكذا ... » (9) . لذا حث على معرفة النص القرآني من خلال بيانه الذي يكمن فيه الإعجاز يميز القرآن كلية ، و أن هذا البيان هو الذي يفسح المجال للدارسين حتى يتمكنوا من التقرب إلى هذا النص . وهذا يدل على أن 'عتر' يدفع القارئ إلى معرفة الأدبية في النص القرآني ، وأن النص الحد عنده هو النص المبين ، ويقصد به جميع الخصائص الجمالية في النص . ومن هاهنا يتمكن المتلقي من فهم النص و استنطاقه ، بسب معرفته للبيان و التبحر فيه .

ثم يتطرق إلى أوجه البيان ، وهي بالنسبة له كما جاءت عند القدماء « المنهج البديع المخالف لكل منهج معهود في لسان العرب و في غيره ، الجزالة ، والتفنن في التصرف ، الإبداع ، تأليف القرآن الصوتي في شكله و جوهره » (10) . و هذا يدل على تأثر عتر بالدارسين الإعجازيين في تحديده لمفهوم النص .

ثانياً: أوجه الإعجاز من حيث المضمون : و في هذا المقام يرى بأن « هذا القسم من أوجه إعجاز القرآن يعقله و يدركه كل من يفهم الخطاب و يرد الجواب ، سواءاً كان يملك ذوقاً أدبياً فنياً أم لا يمتلك التذوق ، بل سواء كان عربيا أم غير عربي » (11) . ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر هذه الأوجه وهي : « العلوم التي اشتمل عليها هذا القرآن ، و الإخبار عن غيب الحاضر ، و أخبار غيب الماضي ، و الإعجاز الشرعي ، و اتساق نظريات القرآن و أحكامه ، وأخيراً تأثير القرآن و فاعليته في الأفئدة » (12). و من خلال ذلك يمكن القول بأن 'عتر' خصص أوجه الإعجاز من حيث المضمون بالعملية التواصلية ، حيث أن هذه الوجوه الإعجازية تُعنى بمتلقي النص القرآني .

النص القرآني و الدراسة الأدبية: إن دراسة القرآن هي دراسة للأدب الأعجز الذي أعجز العالم أن يأتوا بمثله ، كما أنها أعظم و سيلة و طريقة لتنمية الذوق الأدبي و تربية الحس الفني الجمالي و الدراسة الأدبية للقرآن « تعتمد أساسا على قواعد التفسير ، و على العلوم و الأدوات التي يحتاج إليها المفسر في تفسير القرآن ... يضاف إليها استكمالات الجوانب الأدبية الحديثة التي ترتكز على الأسلوب ، و إثارة الخيال ، و إثارة العاطفة ، و الموسيقى ، أو التناغم ليتمكن الدارس من استخلاص الكثيرا من الفوائد الأدبية التي بثه علماء التفسير في ثنايا شروحهم و دراستهم للقرآن ؛ و لا سيما أولئك الذين عنوا بالجوانب اللغوية و البلاغية في تفاسيرهم .... » (13) . و على ذلك يتجلى تأثر عتر بالدراسات القديمة و الحديثة معًا لأنه يرى بأن النص القرآني مساير لكل زمان و مكان جمع هذه الدراسات معناه توحيد الأفكار و لم شتاتها لأنها كانت تصب كلها في بوتقة واحدة للوصول إلى هدف واحد هو إثبات إعجاز القرآن ، حيث تفطن لذلك ، كما يرى بأن الدراسة الأدبية للنص القرآني لا تستوفي مقاصدها حتى تسلط الأضواء على جوانب النص جميعها ، الترتيبية منها و النفسية ، و ما مراعاة الخيال و العاطفة و موسيقى النص إلا دليل على أنه ينزع إلى الإلمام بالنص القرآني من جميع نواحيه ، و هذا لا يعني أنه وصل إلى الطريقة المثلى لتفسير النص القرآني ، و لكن هذا النص مازال يخفي مكامن إعجازه ، و لن يكشف ذلك إلا فكر ملم بأساليب الدراسة و البحث المستمر لتجلي الإعجاز و الكامن فيه و نستشف أيضاً أن نور الدين عتر يشير إلى طرفين هامين في العملية الإبداعية و هما النص ، و المتلقي ، كما أن الآليات التي ذكرها في مقولته هذه تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول منها : يُعنى بالنص في حد ذاته . و أما القسم الثاني يعنى بمتلقي النص سواءً كان سامعًا ، أو قارئًا للقرآن الكريم .

ففي القسم الأول : تطرق صاحب الكتاب إلى الدراسة اللغوية للنص القرآني الذي يختاره نموذجًا للدراسة فيشرح الألفاظ شرحاً معجمياً ، ثم يشرع في الشرح الأدبي للنص مبينا من خلاله الدلالات الكامنة ، و المعاني المقصودة من وراء هذا النص ، و هذا يقابل مايدعوه أصحاب القراءة المستوياتية بالمستوى الدلالي للنص ، منتقلا بعد ذلك إلى دراسة الأسلوب مبينا من خلالها خصائص و مميزات الأسلوب القرآني ، الذي وجد فيه « مظاهر الملاءمة الأسلوبية واضحة قوية في كل جزء من أجزاء النص فكرة و أداءاً و نسقًا و لفظًا » (14).

ISSN 2170-0796

موضحا فيه مواقع الإيجاز و السلاسة ، اجتمعت في أسلوب محبب إلى نفس ، و هذه المواصفات لا تنطبق على سورة في القرآن دون أخرى أو آية دون آية بل اشتملت كل آيات القرآن على أسلوب قوي واضح ، يحمل في طياته مقاصداً و فنوناً بلاغية رفيعة ذات دلالات موحية ، انتظمت في تراكيب جزلة قوية التماسك و الانسجام « مشكلة أسلوباً واحداً يتجه اتجاها واحدا و يجمع في يديك هذين الطرفين معا ، أو كما يسرى الروح في الجسد و الماء في العود الأخضر فذلك ما لاتظفر به في كلام بشر و لا هو من سنن الله في النفس الإنسانية » (15) .

هكذا رأى نور الدين عتر الأسلوب في القرآن و هو يحلله تحليلاً مستوفيا يقربه من تفسير الآيات القرآنية ، و في دراسته هذه لم يغفل عن الطرف الآخر و نعني به تلقي النص القرآني و الاستمتاع بجماله البارع عند قارئه أو المستمع - أي المتلقي عموماً - لإيقاعه الموسيقي ، و التناغم الحاصل بين أحرفه و كلماته ، لقد أعطى نور الدين عتر لهذا المستوى الصوتي حقه في الدراسة و هو يرى أن الإيقاع القرآني يأتي قوياً في النفس ، « و يتعاضد الحس الموسيقي للنص مع الشكل و المضمون في الآداء ليحدث في الأذن إيقاعاً مناسباً للغرض المقصود ، و في بعض النصوص نجد فيه علو الضمة و سهولة المدّ المنتهي بالسكون ، يناسب ما يهدف إليه النص من تقرير العقيدة ... » (16) . و هذا الإيقاع المرتب في القرآن و الذي لا تصنع فيه من أهمّ الركائز التي تُقوي الأسلوب القرآني ، و الذي بدوره يعمل عمله في نفوس متلقيه .

التلقي و أدبية النص القرآني: إن أدبية النص هي الحافز الذي يشد انتباه المتلقي ، ما يسبب استحسانه لهذا النص و يجاوب مع جمالية أنزياحاته و مواقع صمت تفتح آفاقه لدى متلقيه . و على الأستاس يرى الأستاذ نور الدين عتر بأن « وظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية و أسافة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، و إجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، و تغذية الخيال بالصورة لتحقيق هذا جميعه ... و كل أولئك تكفله طريقة التصوير و لتشخيص للفن الجميل » (17) . و يضيف في الصفحة نفسها بأن : « السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية و الحالات النفسية و إبرازها في صورة حسية ، و السير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية و الحوادث الماضية و القصص المروية ، و الأمثال القصية » (18) . و هذا ما جعل نور الدين عتر يخصص قسماً من الدراسة الأدبية للنص القرآني و يسميه تارة العاطفة و أخرى الخيال ، و هو يرى أن الاهتمام بالجانب الوجداني للمتلقي يعد من الوسائل المكملة للدراسة الوافية التي يطمح إليها ، و ذكر ذلك عندما عرف معنى الدراسة الأدبية و قر بأن هذه الوسائل الحديثة مكملة لما كانت عليه الأدوات الإجرائية القديمة المستخدمة في تفسير آي الذكر الحكيم و حسب رأي ستاندال فإن : إثارة الخيال عند الإنسان توسع مقاصد النص لديه ، « فالخيال في القرآن يختلف عن خيال الشعر لأننا ملزمون في وصف الله تعالى بأن نتقيد بالشريعة » (19) . فالهدف من الدراسة الأدبية إذن و حسب مؤلف الكتاب هو إبراز ما يثيره النص الأدبي من تخيل و تصورات تحرك مشاعر الإنسان و تنقله إلى مشاهد مادية ذات وقع بالغ في النفس ، إذ تمثل له بها الأمور المعنوية و خبايا النفس البشرية « لكن القرآن في إثارة خيال السامع لا يعمد إلى اختلاف ماليس واقعاً كشأن الشعراء في شعرهم (أعذبه أكذبه) و هذا فرق شاسع جدا بين صور الأدباء الخيالية و بين صور القرآن الواقعية المعجزة التي تثير تصورات السامع و القارئ و خيالهما دون تزييف و تزوير » (20) . فالصورة الفنية الأدبية جاءت لتكشف خبايا النص و مكنوناته و حقائقه الثابتة.

وخلاصة القول إن نور الدين عتر أفاد من الدراسات القديمة و الحديثة معا بحثاً عن منهج متكامل يصلح لدراسة النص القرآني في كل زمان و مكان .

الإحالات :

1- هو: أستاذ بكلية الشريعة جامعة دمشق ، سورية .

2- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية ، د. نور الدين عتر ، مديرية الكتب و المطبوعات الجامعية ، جامعة دمشق ، سورية ، 1988- 1989، ص : 154 .

ISSN 2170-0796

3- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية : ص : 158 . و هو قول الجرجاني في كتابه الدلائل ، ذكر في الفصول السابقة لهذا العمل .
4- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية : ص : 158.
5-
6- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية المرجع نفسه: ص: 161، و كذلك في إعجاز القرآن للرافعي :174.
7- م . ن : ص :161 .
8- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية : ص : 163ـ 164 .
9- م . ن : ص : 165 .
10- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية: ص : 165إلى 189 .
11- م . ن : ص : 179.
12- ينظر م . ن : ص : 179إلى 189 .
13- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية: ص : 257 .
14- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية : ص : 288 .
15- م . ن : ص : 177 .
16- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية : ص : 304 .
17- ينظر: م .ن : ص : 191 .
18- م .ن . ص . ن .
19- القرآن الكريم و الدراسات الأدبية : ص : 289 .
20- م . ن : ص : 290 .